الدولة القومية
دراسة في نظرياتها الكلاسيكية والمعاصرة

م.د.ماجد حميد خضير (*)
d.majidhameed@gmail.com

الملخص :

تحظى دراسة نظريات الدولة القومية باهتمام أكاديمي بالغ الاهمية من قبل الكثير من الباحثين والمختصين في مجال الدراسات الانسانية والسياسية نظرا لما لها من دور مهم في رسم معالم السياسة الدولية، لأن الدولة القومية تعد الاساس للعلاقات والسياسة الدولية وكذلك فإن استمرارية وجود النظام الدولي الذي تعد الدولة القومية الشخص الرئيس في ادارة كافة التفاعلات التي تحدث داخله. لهذا جاء اختيار عنوان هذا البحث ليسلط الضوء على مجمل النظريات الكلاسيكية التي تناولت نشأة الدولة القومية وتحولاتها وأدوارها وما طرأ عليها من متغيرات أثرت في فاعليتها الى جانب وجود الاشخاص الدوليين الاخرين الذين باتوا يشاطرونها بعض الادوار المهمة في عالم السياسة الدولية.

RESERCH SUMMARY:THE NATION-STATE: A STUDY IN ITS CLASSICAL AND CONTEMPORARY THEORIES

DR.MAJID HAMEED KHUDAIR
COLLEGE OF POLITICAL SCIENCE \AL- NAHRAIN UNIVERSITY

Abstract:

THE STUDY OF THE THEORIES OF THE NATION-STATE ENJOYS A VERY IMPORTANT ACADEMIC INTEREST BY

(*) كلية العلوم السياسية–جامعة النهرين

MANY RESEARCHERS AND SPECIALISTS IN THE FIELD OF HUMAN AND POLITICAL STUDIES DUE TO ITS IMPORTANT ROLE IN SHAPING THE PARAMETERS OF INTERNATIONAL POLITICS. BECAUSE THE NATION-STATE IS THE BASIS FOR INTERNATIONAL CONTIUNUITY OF THE EXISTENCE OF THE INTERNATIONAL SYSTEM IN WHICH THE NATION-STATE IS THE MAIN PERSON IN MANAGING ALL INTERACTIONS THAT TAKE PLACE WITHIN IT. THEREFORE,THE TITLE OF THIS RESEARCH CAME TO SHED LIGHT ON ALL THE CLASSIC THEORIES THAT DEALT WITH THE EMERGENCE OF THE NATION-STATE, ITS TRANSFORMATIONS, ITS EFFECTIVENESS, ALONG WITH THE PRESENCE OF OTHER INTERNATIONAL PEOPLE WHO HAVE COME TO SHARE SOME IMPORTANT ROLES WITH IT IN THE WORLD OF INTERNATIONAL POLITICS.

المقدمة:

لم يختلف الباحثون في تعريف القومية فحسب بل اشتمل كذلك نشأتها الاولى وتفسير نشوء الامم فهناك في هذا الصدد اختلافات عدة حول هل القومية شعور / او ظاهرة طبيعية ملازمة للإنسان منذ أن وجدت البشرية واختلفوا حول جذرها اللغوي وما هو التعبير اللغوي المعبر عنها هل من الممكن عدها (volck) الذي يكون مرة بلفظ شعب ومعنى قومية او nation الخ .

ويذهب دعاة حداثة معنى القومية فيقول (برنارد رسل) مثلا أن الناس في العصر الحديث يقبلون القومية على انها طبيعية ولا يدركون الى اي حد هي جديدة ولعلها بدأت أول ما بدأت عند (جان دارك) في حرب المائة عام، ثم تلاشت في الحروب الدينية وولدت من جديد في عهد الثورة الفرنسية وبغض النظر عن قدم القومية من حداثتها الا ان بعض المفاهيم الحديثة مبدا السيادة والكيان السياسي ومفهوم المواطنة، ومفهوم سيادة الشعب اسهم بفرض إستخدامات حديثة للقومية اي بمعنى القيام بعملية تحديث لهذا المفهوم

وللسلوكيات الدولية الناتجة عنه لتوائم متطلبات التقدم الدولية الحديثة، اذ ظهرت فكرة الدولة التي تعتمد اساسا على وجود عدد من الافراد يعيشون على ارض معينة وتحت سلطة معينة تحكمها مجموعة من المبادئ كالحرية والديمقراطية والمؤسسات السياسية وسيادة الشعب والقانون وتحولت معظم القوميات الى دول قومية تسعى الى تنظيم علاقاتها مع بعضها البعض ضمن اطار من التفاعل الدولي يؤدي لخدمة الاهداف القومية لهذه الدولة. لذلك سيكون بحثنا هذا حول التركيز او لتسليط الاضواء حول مفهوم القومية ثم نبذة عن نظريات القومية الكلاسيكية. ومن ثم نتائج ظهور مبدا القوميات خصوصا في أوربا وما هي مآلات القومية والدولة في العصر الحديث الذي يشهد انقساما حادا بين دعاة الحفاظ على الدولة القومية والاتجاه الثاني المنادي بنهاية الدولة القومية .

إشكالية البحث: تنبع إشكالية البحث من أن القومية ودراستها قد حظيت بمزيد من الجدل الاكاديمي مع كل تراجع أو ظهور للنزاعات الاثنية حول العالم وأستطاع الخطاب القومي الذي ظهر خلف كل نظرية قومية أن يطمس الكثير من معالم القومية كحقل أكاديمي مستقل فضلا عن العاطفة التي تشكل الجزء المعبر عنه في قومية معينة ومحاولة أعادة أنتاج تاريخ قومية ما كل ذلك أضفى عليها مزيدا من التعقيد.

فرضية البحث: يختلف مفهوم القومية وأهميتها نظرياً وواقعياً بإختلاف المرحلة التاريخية وذلك نتيجة توافر جملة من العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية إلى جانب عوامل الجغرافية واللغة والدين والإنتماء المشترك التي تدفع بإتجاه نمو قومية ما أو وبناءها لدولة قومية أو إختفائها.

منهجية البحث: تم اعتماد المنهج الاستقرائي في هذا البحث وذلك من خلال التركيز على كثير من أجزاء الظاهرة موضوع البحث فضلاً عن أعتماد الكثير من المقتربات المساعدة في التوصل للنتائج البحثية وأثبات فرضية البحث منها المقترب التاريخي والمقترب السلوكي ومقترب النظام.

هيكلية البحث

المبحث الأول القومية مابين التأصيل النظري والواقع العملي
المطلب الأول القومية المفهوم والتطور التاريخي
المطلب الثاني نظريات القومية الكلاسيكية
أولاً نظرية وحدة اللغة
ثانياً نظرية وحدة الإرادة
ثالثاً نظرية وحدة الحياة الإقتصادية
المطلب الثالث أنواع الدول القومية
المبحث الثاني النظريات القومية الحديثة ومرتكزات الدولة الوطنية
المطلب الأول الإتجاه المنادي بتلاشي الدولة القومية وأدوارها التقليدية
المطلب الثاني الإتجاه المنادي ببقاء وإستمرارية الدولة القومية وتكييف أدوارها مع مستجدات البيئة الدولية

المبحث الأول: القومية ما بين التأصيل النظري والواقع العملي

المطلب الأول مفهوم القومية والتطور التاريخي

إن الميزة الأساسية للأمة الحديثة وكل ما يتعلق فيها هو حداثتها لقد أصبح هذا الفهم واضحاً الآن لكن الإفتراض المعاكس والقائل بأن محدد الهوية أو الشعب هو شكل ما محدد طبيعي وأولي ودائم بحيث أنه يسبق التاريخ، تلقى إنتقاداً على نطاق واسع. إن معجم الأكاديمية الملكية الأسبانية لا يستخدم مصطلحات مثل(الدولة والأمة واللغة) بالإسلوب الحديث قبل العام ١٦٤٨، وهنا لأول مرة فإن مصطلح(lengua nacianal) كمصطلح يعبر عن اللغة الرسمية والأدبية للبلد واللغة المحكية عموماً في ذلك البلد تمييزاً لها عن لهجات ولغات الأمم الأخرى. أما مصطلح(nacao) وفقاً للموسوعة البرازيلية فهي جماعة من مواطني دولة ما يعيشون في ظل النظام نفسه أو الحكومة نفسها ويتمتعون بوحدة المصالح المشتركة ويخضعون لسلطة مركزية تتولى مسؤولية الحفاظ على وحدة الجماعة، شعب الدولة، عدا السلطة الحاكمة. وفي معجم اللغة الأسبانية نفسه لا يقتصر على الشكل

النهائي للأمة في عام ١٩٢٥ عندما وصفها بكونها تجمع من الأشخاص لهم المنشأ نفسه ويتكلمون عموماً اللغة نفسها ويمتلكون تراثاً مشتركاً[١].

إن المعنى الأول لكلمة أمة يشير إلى الأصل والنسب(naissance extraction, vang) وإذا إستشهدنا بمعجم اللغة الفرنسية القديمة الذي يورد بيتاً شعرياً ل(فروسار frossart) ' je fus returnne au pays de manatien en la cente de haynnau' عدت إلى أرض مولدي \ أصلي في مقاطعة هاينو. وفي المعنى نفسه المرتبط بالأرض تأتي كلمة (patria) وفقاً للمعجم الأسباني لعام ١٧٢٦م والتي تعني الوطن وكانت تشير إلى المكان أو الناحية أو البلد الذي يولد فيه المرء أو أي منطقة أو مقاطعة أو أقليم من أي لوردية أو دولة. وقد كان ذلك وحدة سياسية بالمصادفة ونشدد على كلمة مصادفة [٢].

أن كلمة أمة(nation) في اللغات الرومانية المتفرعة عن اللاتينية وهي الأسبانية والفرنسية والأيطالية والبرتغالية فضلاً عن اللهجات المحلية المشتقة منها هي كلمة أصيلة، أما في اللغات الأخرى مثل الألمانية فهي كلمة دخيلة والبديل عنها كلمة شعب volk خصوصاً في اللغة الألمانية العليا والسفلى والتي لها نفس المعطى والمعنى التي تمتلكها الكلمات المشتقة من nation ألا أنه من الواضح أنه كان قد أنتشر إستخدام المصطلح الفرنسي natie بين الطبقات النبيلة والملوك والأرستقراطيين الألمان ولم يصبح ذائع الإنتشار إلا في القرن السادس عشر وهو يعني أساساً في الفرنسية القروسطية جماعة المولد والحسب والنسب geschlecht . من الواضح أن التركيز على المكان أو على أرض المنشأ pays natal وهو التعريف الفرنسي الذي سرعان ما أصبح راسخاً على الأقل في أذهان مؤلفي المعاجم اللاحقين والمرادف لكلمة مقاطعة ovince في حين يشدد آخرون بالأحرى على جماعة النسب المشترك وبعد ذلك ينتقل المصطلح في إتجاه الأثنية

ethnicity كما في التأكيد الهولندي على المعنى البدائي لكلمة natie التي تعني مجموع الناس الذين ينتمون إلى الجذر stam نفسه [٣].

ويميل المعجم الإنكليزي الذي صدر عام ١٩٠٨ إلى أن المعنى القديم لكلمة القومية كان يشمل أساساً الوحدة الأثنية لكن الإستعمال الحديث يشدد بدلاً من ذلك على فكرة الوحدة السياسية والأستقلال، أما جون ستيوارت ميل فإنه لم يعرف الأمة بأنها تمتلك العاطفة القومية بل أضاف أليها أن أفراد القومية يرغبون في أن يكونوا في ظل حكومة ما أو أنهم يرغبون في أن يكونوا هم أنفسهم حكومة أو قسم منهم حصراً لذلك فإن ميل يناقش فكرة القومية ليست في نشره منفصلة بحد ذاتها على نحو مميز في سياق مقالته الصغيرة حول الحكومة التمثيلية النيابية أو الديمقراطية [٤]. إن المعادلة أمة= دولة=شعب وبالخصوص شعب ذو سيادة مما يؤشر أنها ربطت الأمة بالأرض منذ أن أصبحت بنية وتعريف الدول إقليمية من حيث الجوهر وصارت تشمل عدداً وافراً من الدول القومية على هذه الشاكلة وكان هذا في الواقع نتيجة ضرورية لتقرير مصير الشعب وكما عبر عن ذلك الأعلان الفرنسي لحقوق الإنسان والمواطن عام ١٧٩٥ " كل شعب مستقل ذو سيادة مهما كان عدد الأفراد الذين يؤلفونه ومدى الأرض التي يشغلها فأن هذه السيادة غير قابلة للتنازل"[٥].

وقد وضعت الأكاديمية الفرنسية في قاموسها تعريفاً للقومية nation بالعبارة التالية "مجموع الأشخاص المولودين في البلاد أو المتجنسين بجنسيتها والقائمين تحت رعاية حكومة واحدة" ثم أضيف إلى التعريف نفسه العبارة التالية " ويطلق كذلك على مجموع المواطنين الذين يؤلفون هيئة إجتماعية متميزة عن الحكومة التي تدير شؤونها" . وقد سلك الموسوعيون الأنكليز المنحى نفسه الذي سلكه الفرنسيون في الإشارة إلى "أنه ليس بالضرورة أن تكون nation تعني بالضرورة أمة معترفاً بها ضمن وحدة سياسية مستقلة" أي ليس بالضرورة أن يكون لكل قومية أو حركة قومية دولة قومية ، فهناك في الواقع دولاً أقيمت على خليط متعدد القوميات ودول أخرى حطمتها القوميات وهذا الفهم يشير إلى

خلط وخطأ مفاهيمي واضح وفيه تغليب للبعد السياسي[٦]. وفي واقع الأمر أن كل أمة كانت تترع نحو تكوين دولة تمثلها وحدها والأمة تكون موجودة ولو لم تعبر عنها دولة ما لأنها سبقت وجود الدولة لذلك فإن الألمان قد لاحظوا الفرق بين الأمة والدولة بشكل أوضح وأبعد مدى من الفرنسيين والإنكليز. هذا ويترع بعض الكتاب الفرنسيين إلى أن كلمة **nation** أمة والتي تعني جماعة أو قومية تترع إلى ـــتكون لها دولة تمثلها وحدها وقد إشار إلى هذا المعنى الكاتب الفرنسي هنري بير في كتابه (تطور البشرية) في مقدمة كتابه خلال القرن التاسع عشر إلى أن **nationalite** تعني (جماعة بشرية تترع إلى أن تحكم نفسها بنفسها أو تسعى إلى الإندماج في أمة موجودة قبلاً) وميز بذلك (هنري بير) بين الأمة **nation** وبين الدولة **state** [٧].

الفرق بين الأمة المستقلة والأمة غير المستقلة أي غير الخاضعة للأحتلال إلى هذا الحد تعقيد لا مبرر له ولا فائدة من ورائه لا من الوجهة النظرية ولا الوجهة العملية، فإذا ما عملنا بما يقترحه جوهان(**R-Johannet**) وهنري بير وجب أن يكون أهل الحبشة أيام ما قبل الإحتلال الإيطالي للحبشة عام ١٩٣٨ كانوا في حالة أمة (**nation**) ثم تحولوا بعد الإحتلال إلى حالة (**national**) ثم عادوا بعد زوال الإحتلال إلى حالة(**nation**) وكل ذلك حدث في مدة زمنية تقل عن عشر سنوات. إن جل إهتمام الباحثين آنذاك كان ينصب حول المعايير التي تضمن أفضل أشكال الحكومات والدول ومكانة التماسك النسيجي داخل مجتمع الدولة والأفضل في نظرهم يكون بالدولة القومية التي يشكلها شعب متجانس قومياً.

لقد عرف ماتزيني القومية في درسه الإفتتاحي الذي ألقاه في ٢٢\ كانون الثاني\ ١٨٥١ "الأمة كأساس لوجود الدولة وهي مجتمع طبيعي من الناس يرتبط بعضه ببعض بوحدة الأرض والأصل والعادات واللغة وكذلك في الحياة وفي الشعور الإجتماعي ". أما الألماني فيخته كان قد عرف القومية بأنها "جميع الذين يتكلمون اللغة نفسها" ، وكتبت مدام دوستال الفرنسية في الشأن نفسه أن إختلاف اللغات والحدود الطبيعية والحريات والتاريخ

المشترك كل ذلك يتظافر بين الناس على تكوين رابطة من أشخاص كبيرة تعرف بأسم الأمم ولكنها قالت بصورة عرضية تلك الجمل من خلال وصف ملاحظاتها عن ألمانيا لكن دون أن تتوسع وتتعمق في الموضوع بشكل صريح [٨]. وفي الصدد نفسه يقول مانتشيني أن "الأمة مجتمع طبيعي من البشر" ووصف الأمة بالمجتمع الطبيعي يدل على نظرة علمية هامة إذ أن بعض الإتحادات والتجمعات التي تكون أحياناً دولاً تنشأ بسبب أغراض مصلحية وسياسية لكن وصف ماتزيني للأمة بالمجتمع الطبيعي يدل على أنها تنشأ وتتطور بدافع من طبيعة الحياة الأجتماعية لا من إرادة الأشخاص وترتيباتهم [٩].

أن قومية كل أمة من الأمم قد عبرت عن نفسها بشكل يخالف الآخرين كما أنها تغيرت وتطورت بمرور الزمن فالقومية الأمريكية لا تشبه القوميات الأوربية والآسيوية مشابهة تامة وذلك لفقدانها الأصول التاريخية العميقة فضلاً عن إختلاف ظروفها المادية والسياسية والإقتصادية والإجتماعية والجغرافية وكذلك العوامل المتباينة التي دخلت في تكوين كل أمة وفكرتها القومية، فتأخر الوحدتين الألمانية والإيطالية من ناحية البعد الزمني وإختلاف تاريخهما جعل القوميتين تختلفان نوعاً ما عن القوميتين الفرنسية والبريطانية، فالقومية الفرنسية بين عامي ١٧٨٩-١٧٩٠ كانت معتدلة وحماسية عنها في العام ١٧٩٣ التي أصبحت عنيفة وكذلك القومية الألمانية في عهد بسمارك ١٨٧١ تعد معتدلة عن القومية الألمانية في عهد هتلر ١٩٣٩[١٠].

لقد سعى الكتاب والباحثون من جميع أنحاء العالم إلى إيجاد مفهوم محدد للقومية يساعد ولو بنسب بسيطة بتقديم تعريف مقبول منهجياً وذلك لأغراض الدرسات السياسية لكنهم في النهاية أضطروا من أجل النهوض بدراساتهم السياسية أو تأثروا بفلستهم السياسية إلى وضع تعاريف خاصة بهم ولما كانت الأغلبية الساحقة منهم هم أيضاً دعاة لقومية ما سواءاً بطريقة مباشرة أو غير مباشرة وبذلك لم يتمكنوا من الإبتعاد عن الإنحياز ومن ثم لم يتم الإتفاق على تعريف محدد وواضح للقومية وبذلك نشأت عقبات كثيرة عرقلت سير عملية البحث العلمي. وقد إتفق كل من (رينان الفرنسي وتريتشكه وباري وزنكويل) إلى النظر

إلى الأمة أو القومية بعدها كائن عضوي هيجلي أي عبارة عن روح أو مبدأ ينبعث من تاريخ الإنسان وطبيعته.

وقد يستدل من هذا التعريف أعلاه على رمزية خالصة ومرفوضة موضوعياً إلا أن الأهمية التاريخية المعاصرة لهذا الرمز لا يمكن إغفالها، فدعاة القومية في كل مكان يعتبرون الأمة كائناً سامياً أي بعنى يسمو على الطبيعة أو شيئاً يسمو على الأفراد والمؤسسات التي يتألف منها أما (هيكسلي وهدون) فيعرفان الأمة بأنها " مجتمع له إعتقاد مشترك بالنسبة لأصوله ومشاعر عدائية مشتركة بالنسبة لجيرانه"، أما الكاتب منير حنا فإنه يعرف القومية بأنها "عقد إجتماعي في شعب له لغة مشتركة وجغرافية مشتركة ومصير مشترك ومصلحة إقتصادية مشتركة وثقافة نفسية مشتركة" (١١).

القومية هي روح أو مبدأ روحي أو هي تضامن واسع النطاق تتكون عبر الشعور بالتضحيات التي قام بها الفرد في الماضي ومستعد للقيام بها في المستقبل، وهي بذلك تفترض ماضياً بصورة مسبقة لكن يوجزها في الحاضر حقيقة متعينة وملموسة وهي الموافقة والرغبة التي تجد التعبير عنها بوضوح في الإستمرار بحياة مشتركة ، وجود الأمة أو القومية هي بمثابة إستفتاء عام مثلما أن وجود الفرد هو توكيد أبدي للحياة. ومن ثم وفقاً لهذا المعنى لا يعد العرق واللغة والمصلحة المادية والشؤون الدينية والجغرافيا والضرورة العسكرية من بين المكونات التي تشكل الأمة، بل الماضي البطولي المشترك والزعماء العظام والمجد الحقيقي ، وثمة مكون آخر بالغ الأهمية هو النسيان الجمعي أي إشتراك الأفراد جميعهم بنسيان أشياء كثيرة خصوصاً المذابح في تاريخ أمة ما (١٢).

وفقاً للمؤرخ والدبلوماسي الأمريكي (هيز) تعد القومية " تجسيداً عظيماً لإخلاص البشر ووفائهم لجنسيات كبيرة والتأسيس الواعي لـــ(أمة) على جنسية لغوية وثقافية" ، والسؤال المركزي الذي ينبغي التصدي له وفقاً ل هيز هو ما الذي منح القومية في العصر الحديث هذه الشعبية والإنتشار، في أغلب حقب التاريخ المدون ظل البشر أوفياء لقبائلهم وعشائرهم ومدنهم وقصور نبلائهم... الخ والقومية هي مجرد تعبير آخر عن ميول البشر

الإجتماعية التي ليست أكثر طبيعية أو كموناً من النزعة القبلية أو الإمبراطورية، وأن ماجعل القومية تنتشر بصورة واسعة هو تنامي الإيمان بالدولة القومية بوصفها الوسيلة الفضلى التي يمكن من خلالها تحقيق التقدم البشري والتحضر الإنساني كذلك تحقيق مصالح الافراد [١٣].

وفقاً لـــ هيز فقد تمظهرت القومية الحديثة في خمسة أشكال مختلفة وهي القومية الإنسانية، والقومية اليعقوبية، والقومية التقليدية، والقومية الليبرالية، والقومية المتكاملة[١٤]. سيتم التطرق في المطلب الثاني من هذا البحث إلى نظريات القومية الكلاسيكسية بشكل مفصل مثل نظرية وحدة اللغة أو النظرية الألمانية وهي تمثل خليطاً من تصنيف الكاتب الأمريكي هيز، ومن ثم نظرية إرادة العيش المشترك لـــ آرنست رينان الفرنسي وأخيراً نظرية وحدة المصالح الإقتصادية أو نظرية ستالين.

المطلب الثاني: نظريات القومية الكلاسيكية

أن البحث في القومية من ناحية أكاديمية يستلزم الألمام بتطورها التاريخي وبكونها إيديولوجيا وحركة إجتماعية وسياسية وجدت منذ نهاية القرن الثامن عشر أضحت القومية شيئاً لا يمكن تجاهله فهي ليست مرحلة مؤقتة في الإرتقاء التاريخي للمجتمعات البشرية فقد دشنت عقوداً طويلة فيما سمي بعصر القومية وهذا الإنتشار والتأثير للأفكار القومية خلف مجموعة نظريات للقومية في طابعها الكلاسيكي والذي سيتم التطرق إليه في هذا المطلب ضمن ثلاثة نظريات النظرية الألمانية أو وحدة اللغة ونظرية المصير المشترك ونظرية المصالح الإقتصادية.

أولاً نظرية وحدة اللغة أو النظرية الألمانية

نشأت هذه النظرية في النصف الأول من القرن التاسع عشر في ألمانيا وأنتشرت منها إلى معظم البلاد الأوربية الغربية والشرقية وعرفت بأسم النظرية الألمانية، وأشهر آبائها ومنظريها هو (فيخته **fichte**) إذ ذكر أن جميع الأقوام تنطق وتتكلم إلا أنها لا تتكلم لغة واحدة بل تتكلم بلغات مختلفة وأن الشعوب التي ينتسب إليها أبناء البشر يتميز بعضها عن

البعض الآخر باللغة التي تميزها وحدها دون غيرها، وأن أول من نبه الأذهان إلى هذه الحقيقة هم طائفة من المفكرين في ألمانيا خلال النصف الأخير من القرن الثامن عشر. وكان (هيردر herder) ١٧٤٢-١٨٠٣ في طليعة هؤلاء المفكرين إذ زار الكثير من البلاد الأوربية وقام بالكثير من الأبحاث اللغوية والأدبية والتاريخية في أوربا وتوصل من خلال أبحاثه هذه إلى فلسفة خاصة بالتاريخ العام فقد نشر كتاباً في سنة ١٧٧٤ بعنوان(فلسفة أخرى في تاريخ البشرية) وأردف هذا الكتاب بعد ذلك بأربعة كتب أخرى نشرها في العام ١٧٨٤ وسنة ١٧٩١ تحت عنوان(آراء لتكوين فلسفة التاريخ البشري) ومن ثم فإن طائفة من الآراء التي ذكرت في هذه الكتب تدور حول علاقة اللغة بنفسية الأمة وشخصيتها[١٥].

أن آراء هيردر دارت حول ما يلي[١٦]

١- الطبيعة فرقت الشعوب بعضها عن الآخر ومعيار التفريق ليس بسبب حواجز طبيعية بل بسبب اللغات والميول والسجايا.

٢- أن أدب الطبقات العليا من الأمة قد يعكس التأثيرات الخارجية والأجنبية لكن لغة الشعب تمثل في كل الأحوال روح الشعب نفسه.

٣- أن لغة الآباء بالنسبة لشعب ما تعد مخزناً من ذخائر الفكر والتقاليد والفلسفة والدين.

٤- إن قلب الشعب ينبض في لغته.

وفقاً لهذه الرؤية التي قدمها هيردر فإن اللغة القومية بهذه الأبعاد الاجتماعية والفلسفية الخاصة من الطبيعي أن تقود إلى نتائج سياسية مهمة، إن هيردر نفسه كان قد أستنتج أن اللغة تكون بمنزلة القلب والروح بالنسبة للأمة وأن الشعوب التي تتكلم لغة واحدة تكون بقلب واحد وروح مشتركة وعلى كل أمة أن تتمسك بلغتها تمسكها بحياتها وهذا التمسك حق وواجب في الوقت نفسه ومن ثم فهي أمة واحدة ويجب أن تكون دولة واحدة [١٧].

لقد حاور المفكر فيخته رجل من رجال بروسيا بقوله " أنت ألست ألمانياً؟" وقد أجاب الرجل بإداء حاسم " كلا أنا لست ألمانياً بل أنا بروسي وأفتخر ببروسيتي ولا أرضى عنها

بديلاً" وقد رفض فيخته هذا الجواب معللاً رفضه هذا أن الفوارق بين بروسيا وألمانيا هي فوارق عارضة نتيجة الأحداث الأعتباطية التي أوجدتها الصدف وأن هناك لغة مشتركة بين الألمان تميزهم عن الآخرين تمييزاً جوهرياً [١٨]. وتمثل هذه اللغة أيقونة الوحدة الألمانية التي تبث فيهم روح الحماس وتجدد النبض بأنهم مازالوا أحياءاً طالما تكلموا اللغة الألمانية وأصروا على تكون هذه اللغة حسهم المشترك ورابطتهم الطبيعية غير القابلة للإنفصال، وقد سلك القوميون الإيطاليون المسلك نفسه الذي سلكه الألمان وأمنوا بنظرية وحدة اللغة كأساس للمشاعر القومية والوحدة السياسية وكان رائد الحركة القومية الإيطالية هو جوسيبي ماتزيني [١٩].

إن نظرية وحدة اللغة على الرغم مما حققته من إنتشار في معظم أوربا وما تمخض عنها من أحداث سياسية مهمة فإنها لم تخلو من النقد، فهناك دول عدة شكلت خليطاً غير متجانس قومياً لكنها لم تتفكك وقدمت تماسكاً سياسياً ومجتمعياً مثل سويسرا والهند وهناك في الجانب الآخر كانت اللغة التي ينطق بها معظم سكان أمريكا اللاتينية هي اللغة الأسبانية لكنها لم تشكل عاملاً وحدوياً يجمع شتات دولها.أن هناك ملاحظة نظرية تتعلق بوجود شيء أكبر وأقوى من اللغة وهي العاطفة والمشيئة والتي تؤثر في تكوين الأمة وهي عامل أصلي وليس ثانوياً.

ثانياً: نظرية إرادة العيش المشترك

إن نظرية وحدة اللغة كانت قد أضرت بمصالح فرنسا لأن سياسة فرنسا التقليدية تطمح إلى التوسع في الشمال حتى نهر الراين إلا أن فرنسا محاطة بحدود طبيعية من كل الجهات، لكن البلاد التي تمتد بين فرنسا وبين نهر الراين كانت مأهولة بسكان يتكلمون الألمانية والنظرية المذكورة من شأنها أن تجعل ذلك مخالفاً لمبدأ حقوق القوميات وفرنسا كانت تحكم الألزاس منذ أواسط القرن السادس عشر وأهالي الألزاس يتكلمون الألمانية وأن نظرية وحدة اللغة كانت تعطي الألمان حقاً لفصل الألزاس عنها لذلك تقدم مجموعة من كتاب فرنسا ومفكريها لمناقشة الألمان في هذه القضايا [٢٠]. وقد ألقى الكاتب الفرنسي (آرنست

رينان) في جامعة السوربون في باريس سنة ١٨٨٢، خطاباً تحت عنوان(ماهي الأمة) ويمكن تقسيمه إلى ثلاثة أقسام: [٢١]

القسم الأول: يذكر من خلال خطابه بعض الوقائع التاريخية التي تتعلق بتكوين الأمم والدول ويحاول تعليلها.

القسم الثاني: يستعرض من خلاله جملة من الآراء التي تدور حول عوامل تكوين الأمة وينتقدها واحداً تلو الآخر.

القسم الثالث: سرد فيه رينان رأيه في ماهية الأمة بقوله" إن المشيئة هي أس الأساس في تكوينها" .

الذي يعنينا في هذا الخطاب هو القسم الثالث منه لأنه قدم بذلك نظرية المشيئة أو إرادة العيش المشترك، وقد قدم آرنست رينان مجموعة تساؤلات حول ماهي الصفات التي تعرف بها الأمة؟ ولماذا تعد هولندا أمة مع أن سكانها مختلفون في اللغة والمذهب؟، في حين أن توسكانيا ليست أمة رغم تجانس سكانها في اللغة والمذهب. ومن ثم بدأ رينان من خلال هذه التساؤلات في البحث في عوامل تكوين الأمة، إذ ذكر كل من عامل الأسرة المالكة ووحدة الأصل ووحدة اللغة ووحدة الدين فضلاً عن الإشتراك في المصالح وعوامل الجغرافية والأمور الستراتيجية، وأكد على أهمية هذه العوامل لكنه لم يعدها كافية لتكوين الأمة وذكر أن اللغة تدعو إلى الإتحاد لكنها لا تفرضه ويستشهد بذلك على سويسرا وأميركا ثم يقول "من مفاخر فرنسا أنها لم تحاول أن تحصل على وحدة اللغة من خلال فرضها بالقوة"[٢٢].

لقد بحث رينان عما يكونُ الأمة، لأن الأمة في نظره روح وجوهر معنوي وهذا الجوهر يتألف من أمرين أحدهما يعود إلى الماضي والآخر يتعلق بالحال وكلاهما يرتبطان ببعضهما ربطاً وثيقاً، كالإشتراك بالذكريات الماضية ورغبة العيش المشترك والسعي وراء زيادة قيمة تراث الأمة فضلاً عن الرغبة في مستقبل مزدهر يسهم معاً في تكوين الأمة من خلال مبدأ العيش المشترك وهذا المبدأ يعده رينان أكثر واقعية وأقل ميتافيزيقية من مبدأ الحق الآلهي

للملوك في دعم تسلطهم، ومن ثم فأن رغبة الشعوب ومشيئتها هي المعيار الصحيح الذي يجب أن يعتمد عليه ويعتد به في تقرير مصير أمة ما [٢٣]. لا يمكن أن تسلم نظرية ما من الإنتقادات ومن جملة ما سجل على هذه النظرية من انتقادات هو أن المشيئة ليست شيئاً ثابتاً بل يتغير بسبب الظروف وتبدل القناعات، وتتأثر هذه المشيئة بعوامل فكرية وحسية عدة فضلاً عن عوامل الخداع والإقناع والدعاية وهذه النظرية بالذات كانت رد فعل وليست إسهاماً علمياً، ومن ثم فإن فرنسا الإستعمارية شددت على فرض لغتها في معظم مستعمراتها التي تتكون أساساً من دول وشعوب مختلفة عنها في النواحي الثقافية كافة فضلاً عن إختلاف عامل اللغة والدين والتاريخ المشترك ناهيك عن إختلاف إرادة العيش المشترك والمشيئة التي لم توجد أصلاً لدى سكان المستعمرات.

ثالثاً: نظرية وحدة المصالح الإقتصادية أو نظرية ستالين

إن المصالح الإقتصادية كانت ولا زالت أهم القوى المحركة والموجهة في الحياة الإجتماعية والسياسية، وعدت هذه النظرية المصالح الإقتصادية أس الأساس لكل أمة، إذ يرى السوفيت أن لا أمة دون حياة إقتصادية مشتركة، لكن المصالح الإقتصادية إن وحدت الناس فإنها كثيراً ما أوجدت فوارق اقتصادية واجتماعية هائلة فضلاً عن الصراع المتولد عن ذلك، لقد إهتم الماركسيون إهتماماً كبيراً وكتبوا الكثير من الأبحاث حول هذه النظرية، ذلك من أجل ايجاد أرضية مشتركة ورغبة في تقديم بديل عن النظريات السابقة لتجاوز حالة الاختلافات القومية المبنية على عوامل اللغة والدين والتاريخ المشترك [٢٤]. إن إهتمام الماركسيين بالمسائل القومية قد إشتد وتضاعف في روسيا بعد المدة بين عامي(١٩٠٥-١٩٠٧) وذلك لأن الحياة النيابية التي تقررت بفعل الثورة الماركسية والتطورات الاجتماعية والاقتصادية التي رافقتها وتلتها أدت إلى تنشيط الحركات القومية في مختلف أنحاء روسيا وأخذت شكل موجة طاغية وعرضت الماركسية في روسيا إلى أمتحان عسير [٢٥].

نشرت مقالة لـــ(ستالين) لأول مرة عام ١٩١٣، في مجلة الحزب البلشفي تحت عنوان(القومية والإشتراكية والديمقراطية) وأعيد صياغتها مرة أخرى عام١٩٢٩ بعنوان(الماركسية والمسألة القومية) قسم ستالين مقالته هذه إلى مجموعة فصول الفصل الأول منها كان تحت عنوان(الأمة) خصصه لتحديد معنى الأمة وشرح مكوناتها وأعتبرها قبل كل شيء جماعة معينة من الأفراد وهذه الجماعة ليست جماعة عرق(Rice) ولا جماعة عشيرة بل هي جماعة إناس متكونة عبر الحتمية التاريخية وفند من خلال مقالته هذه أن تكون فرنسا أو بريطانيا أو إيطاليا بينهما وحدة عضوية واحدة ولا وحدة لغة بل تكونت هذه الدول والأمم من مجموعات عرقية ثقافية متمايزة مثل الرومان والجرمان وأتروسك وأنكليز وغيرهم(٢٦). لم ينكر الماركسيون بدورهم مكونات القومية بل أضافوا لها عنصر وحدة الحياة الاقتصادية لكنهم رفضوا فكرة الدولة وإضافتها كعنصر آخر أو كنتيجة لوجود روح قومية ينبغي أن تكون هناك دولة تمثل هذه القومية بل رفضوا بشكل قاطع أن تكون الدولة أحد مقومات القومية وشروط تكوينها وذلك بفعل موقفهم من الدول القائمة وعدوها أداة بيد الطبقة الرأسمالية(٢٧). تم إعطاء وحدة الحياة الاقتصادية أهمية تعادل أهمية اللغة بالنسبة للقومية وإستبعدت الدولة التي هي مطلب لكل قومية وهذا شكل تناقضاً واضحاً في هذه النظرية إذ أن لكل دولة من الدول فلسفة اقتصادية خاصة بها وعبر هذه الفلسفة تدير الدولة تعاملاتها الاقتصادية وتضع دوائر كمركية وتنشأ الموانيء الإقتصادية وتقرر نظام النقد والضرائب وفقاً لهذه الفلسفة لذلك لا يمكن فصل الحياة الاقتصادية عن شؤون الحكم والسياسة ولا يمكن إعتبار وحدة الحياة الاقتصادية عاملاً من عوامل القومية لذلك فإن هذه النظرية لا تعدوا كونها خطة سياسية أكثر من كونها نظرية سياسية.

المطلب الثالث: واقع الدول القومية اليوم

عند الحديث عن الدولة القومية أو الوطنية فهي ليست دولة عرق واحد أو لغة واحدة بإستثناء آيسلندا التي هي المثال العرقي الوحيد أما باقي دول العالم فهي مزيج متعدد من الثقافات والأعراق والديانات مع الاختلاف في نسبة كل من هذه المكونات داخل كل

دولة وغلبة أي ثقافة سائدة هناك فلا وجود لما يسمى ب(النقاء الثقافي)، إذ يعرف (جونار نيلسون) الدولة الوطنية بأنها تلك التي لا تقل نسبة السكان الذين ينتمون إلى أصل عرقي واحد عن ٦٠ بالمائة من مجموع السكان وبهذه النسبة يمكن تعيين (١٠٨) دولة في العالم ينطبق عليها هذا الوصف[٢٨]. وفقاً لجونار نيلسون يمكن تقسيم الدول إلى مجموعتين:[٢٩]

أولاً الدول القومية **nation states** وهي الدول التي ينتمي فيها أكثر من ٦٠% من السكان إلى مجموعة عرقية واحدة أو قومية واحدة وتضم شريحتين:

١- الدول المنقسمة**part-nation- states** إذ تتوزع فيها الجماعة العرقية أو القومية الواحدة على دول عدة مثل الأمة العربية والقومية الكورية.

٢- الدولة الموحدة **single- nation- states** وهي التي تهيمن عليها قومية واحدة بنسبة ٩٠-٩٥% من السكان وتوجد تقريباً ثلاثة وعشرون دولة من هذا النوع مثل آيسلندا واليابان والصومال، وكلما قلت نسبة القومية المسيطرة عن النسبة المذكورة أعلاه إزدادت نسبة الدول الداخلة في هذا التصنيف إلا أنه لا وجود للنقاء العرقي أو الثقافي كما ذكرنا سابقاً.

ثانياً الدول غير القومية **non-nation-states** ، هذه الدول لا تشكل فيها مجموعة قومية وحيدة ٦٠% من مجموع السكان وتنقسم إلى ثلاثة أقسام:

١- الدول غير القومية الوسيطة **intermediate non-nation-states** ويهيمن على هذا النوع من الدول مجموعة عرقية لكنها تشكل ٤٠-٦٠%.

٢- دول ثنائية القومية **bi-nation-states**، وتتكون هذه الدول من مجموعتين قوميتين بنسبة ٦٥%.

٣- دول متعددة القوميات **multi-nation-states** وتتميز هذه الدول بدرجة عالية من التشرذم القومي والعرقي.

ينتشر طابع الدول القومية في القارة الأوربية وإلى حد ما في الولايات المتحدة خصوصاً الولايات الثلاث عشرة الإولى آبان مرحلة تأسيسها، أما باقي أنواع الدول القومية فإنها تشهد تمازجاً وتعدداً قومياً نتيجة كونها نشأت كدول بعد مرحلة الإستعمار الذي إستطاع وضع بصماته وفقاً لحدود مصطنعة، أو أن هذه القوميات كانت تعيش في الماضي ضمن حقبة الإمبراطوريات ومن ثم فأنها بعد زوال الإمبراطوريات تحولت واقعياً إلى دول متعددة قومياً.

من التأثيرات السلبية للتنوع القومي في عالم اليوم هو تصدير هذا التنوع إلى الخارج بمعنى محاولة نشر هذا التنوع لتحقيق أبعاد سياسية، إذ تتمثل بالمطالبة بالنظر بسوء توزيع السلطة والثروة، وهذا التنوع لا يشكل مشكلة قائمة بنفسها بل بما يفرضه من عقبات أمام النظام السياسي الذي يواجه مشكلة في تحقيق إندماج وطني، لأن معظم الدول الوطنية غداة تشكلها واجهت واقعاً مهماً وأساسياً وهو وجود تنوع قومي داخل نسيجها المجتمعي لدرجة تبدو وكأنها مجموعة دول داخل دولة واحدة[٣٠]. أن الدولة الوطنية اليوم تحتاج بدلاً من النقاء القومي إلى إندماج وطني فوفقاً لـــ(لوسيان باي) فالإندماج هو" عملية ربط السياسة الشعبية بعمل الحكومة" وهذا الإندماج يحتاج إلى توفر عنصرين الأول هو قدرة الحكومة على فرض سيطرتها على أقليمها لتضمن لنفسها البقاء وتوجيه تطبيقها الفعلي لصالح مواطنيها، والثاني هو توفر الولاء من جانب المواطنين إزاء الدولة بشكل عام بعيداً عن الولاءات المحلية[٣١]. إن عالم اليوم وعلى حد رأي المفكر (كارل بوير) صاحب المدرسة (النقدية العقلانية) الذي يؤمن بأن العالم لا يحتاج من باحثيه إلى تأكيد ماهو شائع بقدر ما يحتاج إلى تحديه بطرح أسئلة معاكسة قد تجد عناصر جديدة لم يتم التطرق إليها من قبل باحثين آخرين إنغمسوا في تأكيد ماهو قائم، والحالة الألمانية المعاصرة تعبر عن ذلك فالدستور الألماني الذي يفرض على الأحزاب الحصول على ٥% من الأصوات حتى تحصل على مقاعد بالبرلمان، وهذه التركيبة أدت إلى إستبعاد وصول الأحزاب اليمينية إلى البرلمان ولأن حركة السياسة ترتبط بحركة التاريخ تأتي الحالة الألمانية لتعبر عن مسار مختلف للتاريخ

الألماني الذي كان أسيراً لأرث ثقيل من النزعة القومية تحت مسمى "عبيء الماضي" [٣٢]. القومية والدول القومية اليوم كما يرى (هنري كيسنجر) وإن إفتقدت الكثير من خصائص الدولة القومية إلا أنها تتجه نحو نموذج (الدولة القومية القارية) وتحت هذا النموذج يكون لدينا دول مثل الولايات المتحدة والهند وربما الإتحاد الأوربي فيما لو نجح في مواجهة صعود أحزاب اليمين[٣٣].

إن الوعي بالإنتماء القومي وجد منذ أقدم العصور عند الكثير من الحضارات القديمة، إذ تعد القومية المنتج النهائي لعملية دمج مجموعة جماهير في شكل سياسي مشترك، لذلك لم تظهر بوعي سياسي خلال القرون التي سبقت القرن السادس عشر، والوعي السياسي الذي نقصده هو عملية إضافة بعد أو عنصر من العناصر السياسية إلى قومية ما قصد إيجاد حالة من الإندماج ضمن مشروع سياسي، كما فعلت الصهيونية العالمية التي خرجت عن أدبيات الفكر الديني اليهودي الذي كان يرفض فكرة الدولة اليهودية مالم يظهر عصر المخلص أو (الماشح)، وقد ذهبت النازية في المنحى ذاته وكذلك فعل الماركسيون. لذلك فإن القومية في مجملها وبعيداً عن القوالب السياسية هي ذلك الإطار الجمعي الذي يضم مجموعة بشرية تتكلم لغة واحدة ولها دين واحد أحياناً وتاريخ نضالي مشترك وتوجد قبل وجود الدولة، والقومية في أوربا خصوصاً وفي الغرب بشكل عالم كانت عنواناً لمشروع سياسي، أما القومية في آسيا كانت في مرحلة متأخرة تناضل من أجل إنشاء دولتها التي تزامنت مع النضال لأجل التحرر الوطني من الإستعمار الأمر الذي أوجد أمامها تحديات كبرى تتصل بالتنمية والإستقرار السياسي.

المبحث الثاني: النظريات القومية الحديثة ومرتكزات الدولة الوطنية

لم نشهد اليوم ظهور نظريات قومية حديثة كما هي النظريات القومية الكلاسيكية التي قدمنا لها في هذا البحث، بل بتنا نشهد ظهور متغيرات سياسية وإقتصادية وتحديات أمنية أثرت في فاعلية الدولة الوطنية وعرضت وجودها للإختبار بفعل العولمة والتطور في وسائل الفعل الإتصالي، ولو أحتسبنا أن التطور التكنولوجي عامل مستقل فإن درجة تأثيره على

الدولة الوطنية يعتمد على عنصرين الأول قوة الدولة الوطنية التي تختلف من دولة لأخرى ومقدار إستجابتها لهذا التحدي، أما العنصر الثاني فهو من يمتلك أدوات هذا التطور التكنولوجي ومن ثم يمتلك تصدير المضمون الفكري لسياساته عبر أدوات التطور التكنولوجي خصوصاً مواقع التواصل الإجتماعي. لذلك فإن الدولة الوطنية بفعل هذه المتغيرات باتت تشهد تحديات كبيرة وتحولات أكبر فضلاً مما جعل وجودها وأستمراريتها محل تساؤولات تتعلق في إمكانية تلاشيها أو إندماجها مع شكل آخر من أشكال الوحدة السياسية أو إحتمال إستمراريتها بمضمون ومحتوى أدائي آخر يسمح ببروز أشخاص قانونيين دوليين آخرين، وأن هناك مجموعة تساؤلات أثيرت في هذا الصدد من قبيل مناقشة مدى قابلية الدولة الوطنية على ممارسة وظائفها التقليدية بعدها كياناً فاعلاً متماسكاً له قابلية الإستمرار في عالم معقد ومتداخل التفاعلات، إذ أن هناك العولمة المتسارعة للإقتصاد العالمي والتطورات الثورية في مجالي الاتصال والنقل والضغوط الإنفصالية والإتجاهات البيئية والصحية والديموغرافية كأنها عملية تقويض لقدرات الدولة التقليدية وسلطاتها، وتزايد حضور الفاعليين الدوليين من غير الدول وهذا ما يتم البحث فيه هنا.

المطلب الأول: الإتجاه المنادي بتلاشي الدولة القومية وأدوارها التقليدية

ظهرت الكثير من الإطروحات أواخر القرن الثامن عشر التي تحدثت عن نهاية الدولة بشكل عام أو ولادة دول على روابط جديدة غير الروابط التقليدية التي كانت سائدة، وكان من روادها إيمانويل كانط في كتابه (السلم الدائمPerpetual peace) عام(١٧٩٥) وكذلك كتابات كارل ماركس وبرتراند راسل خلال الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين وإنتهاءاً برواد الليبرالية الجديدة من خلال إطروحات (عالم بلا حدود وموت الدولة الوطنية). وبإختلاف الكتاب الذين أكدوا على دور التأثيرات العميقة للتحولات العالمية الجديدة على الدولة الوطنية في إنها إجمالاً لا تعد هذه التأثيرات على مستوى واحد بل تختلف إلى حد كبير في درجة ومستوى تأثيرها على الدولة الوطنية،

هذه النتيجة تؤكد ضرورة التبصر والتأني في أخذ هذه الإطروحات دون دراسة أهداف كتابها والدوافع السياسية التي ورائهم[٣٤].

إن الدولة ليست الفاعل الوحيد على المسرح العالمي، كما أن نمو العلاقات عبر الوطنية يدل على أهمية الفاعلين غير الحكوميين مثل الشركات متعددة الجنسيات، ويرى دعاة الليبرالية أهمية المنظمات الدولية لكونها فواعل مستقلون وليسوا أجزاء من دول ووفقاً لهذا الطرح تكون الدولة عبارة عن كيان مجزأ ومكون من مؤسسات ومنظمات مختلفة لها قدرة العمل على المسرح العالمي[٣٥]. وعلى مدار التاريخ فقد تطورت العلاقات الدولية وشهدت تحولات ستراتيجية كبرى أدت إلى المساس بالبنى والهياكل السياسية والأمنية والاقتصادية المشكلة لوحدات النظام الدولي الأساسية وعلى رأسها الدولة القومية، بفعل تنامي تهديدات أمنية متغيرة ومعقدة، وحتى إنتهاء الحرب الباردة كانت المدرسة الواقعية في العلاقات الدولية بأطروحاتها كافة التي تتعلق بكون الدولة القومية هي الفاعل الوحيد في العلاقات الدولية، إلا أنه بدأ هناك منظور كوني شامل أو كلي وفي القلب منه تقع النظرية البنائية(**Constructivism**) التي بمناهجها وقياساتها المختلفة والمرتكزة على البعد المعرفي والمكونات الهوياتية والثقافية للمجتمع المكون للدولة، لقد تم التركيز على الجانب القيمي والجمع بين متغير القوة ومتغير نشوء الأفكار والهويات والكيفية التي تتفاعل معها لتشكل الطريقة التي تنظر من خلالها الدول لمختلف المواقف التي تواجهها، وبرزت إلى العلن قضايا الأقليات وظاهرة الإرهاب أو ما يعرف بالفواعل الخفية والتهديدات غير المتناظرة، وتزايد الأحساس بالهوية كمحرك للأزمات والصراع في عالم ما بعد نهاية الحرب الباردة[٣٦].

وفقاً للطرح أعلاه فإن الدولة الوطنية لن تستطيع مواجهة تهديدات العولمة وتوسع السوق العالمية والتي أدت إلى فقدان الدولة جزءاً مهماً من سلطاتها وربما ستتحول إلى مجرد مضيف للشركات متعددة الجنسيات والعابرة للقوميات، ووفقاً لكتابات (كينيشي أوهماي) في(عالم بلا حدود)(ونهاية الدولة الوطنية) بإن سيادة الدولة أصبحت مهجورة وآيلة

للإنحلال وغير قادرة على إنجاز حتى وظائفها التقليدية، وأن أنماط الهوية تصبح أكثر تعقيداً نظراً لميل الناس نحو تأكيد ولاءاتهم المحلية في الوقت الذي يرغب فيه هؤلاء الناس في الإندماج بأنماط العيش العالمية خصوصاً الأمريكية منها[٣٧]. ووفقا لكل من (نويل بورج وفيليب جلوب) فان "العولمة ستحكم على الدولة الوطنية بالالغاء وعلى السيادة بالعجز ولن تكون السيادة إلا صدفة فارغة" هذا المصير المتشائم للدولة الوطنية جاء متوافقا أو ربما يعد تنظيرا للرأسمالية الكونية التي تريد للدولة الوطنية أن تكون مجرد مدير محدود الصلاحيات للأكراهات الاقتصادية التي ستتجاوزها مما سيؤدي إلى انقلاب علاقات القوى لمصلحة الاسواق العالمية ومن ثم ستنتهي الدولة الوطنية ولن تعود لتكون مكانا مفضلا للهوية والعمل السياسي أو للعيش المشترك[٣٨].

وفقا لهذه التصورات فان نموذج الدولة القومية الذي كان سائدا خلال القرن العشرين وفي القرن الحادي والعشرين بصدد الان نهاية صلاحيته ان لم يكن تلاشيه نهائيا وذلك بفعل التغير الجوهري والعميق لمفهوم القوة بابعاده كافة، فالاشخاص الدوليون من غير الدول باتوا يحدثون تاثيرات عميقة تفوق قابليات وحجوم الكثير من الدول الرئيسة لدرجة تدعو لتغيير مصطلح السياسة الدولية نحو مصطلح السياسة العالمية بمعنى أننا أصبحنا نعيش في ظل وضع يقع خارج المنطق الدولتي في ظل وجود عالمين متناقضين جوهريا عالم دولتي طقوسي مقنن وعالم آخر متعدد الفواعل ومراكز القوى[٣٩]. ان روابط الافراد هي غير الروابط القومية التي ولدت نظام الدولة القومية الاخذ بالزوال وهذا يقودنا الى الدخول في تفسير العلاقة الجدلية بين المجتمع والدولة التي تتاثر بالسيرورة التاريخية والثقافية فقد يفتقر المجتمع لوجود دولة لكن لا يمكن للدولة أن تنشأ دون وجود مجتمع ومن ثم فأن المجتمعات في حالة تحول دائم طبقا للواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي الذي يدفع باتجاه تبني شكل لنظام سياسي معين يلبي طموحات أبناء ذلك المجتمع.

المطلب الثاني الاتجاه المنادي ببقاء واستمرارية الدولة القومية وتكيف أدوارها مع مستجدات البيئة الدولية

قد يتساوى عدم وجود الدولة مع ضعفها وعجزها عن أداء وظائفها في ظل تنامي مظاهر عدة تعبر عن هشاشة الدولة (Fragility) مثل الفساد وانعدام الامن والفقر والدعوات الانفصالية تحت أي مسوغ كان ، وربما تكون مظاهر الهشاشة في بنية الدولة القومية مبررا ومسوغا لتدخل القوى الكبرى في شؤونها الداخلية[٤٠]. وربما تكون مظاهر الهشاشة هي نفسها عاملا مساعدا على بناء مسار للمناعة قد يكون كابحا استباقيا لبروز تلك المظاهر ، في ظل استحضار مسار دفاعي يستخدم مفاهيم مترادفة مثل المرونة والحساسية والتكيف والتماسك والنضج والصمود ربما تسهم جميعها في رفع قدرات الدولة أو المجتمع أو حتى هياكل النظامين الاقليمي والدولي على مواجة مثل تلك الازمات[٤١]. فتجربة الصراع بين مكوني الهوتو والتوتسي في جمهورية رواندا شاهد معاصر على نجاح وصمود الدولة ومن ثم تبني مسار مضاد لنهاية الدولة هناك، فلو افترضنا جدلا أن لكل دولة مقومات مناعة ومضادات هشاشة أو بعضا منها تستطيع والحالة هذه استحضارها للخروج من أزمتها مثل امتلاكها لنظام ديمقراطي حر واقتصاد كفيء وعادل وبنية مجتمعية وهوياتية منسجمة، فالمجتمع يمتلك من المؤسسات مثل القبيلة والاسرة كرأس مال اجتماعي يستطيع تعويض فشل الدولة في أداء وظائفها حتى تتمكن من تجاوز محنتها لكن دون أن يكون لتلك المؤسسات المجتمعية سلطان يعيق الدولة عن العودة لممارسة وظائفها والتعدي على سلطانها وذلك في اطار أن تكون أهمية تلك المؤسسات أو البدائل المجتمعية مشروطة ببناء علاقة دعم متبادل بين الدولة والمجمع[٤٢].

في اطار العلاقة بين الدولة والمجتمع فان جل الدراسات الاكاديمية أكدت على أولوية المجتمع على الدولة وأن اكتمال الصورة التحليلية يتحقق باضافة الشق المجتمعي الى الشق المؤسسي ومن ثم فان علاقة الدولة بالمجتمع بدأت بمقولات الاستقرار الوظيفي التي أصبحت تحتل موضع القلب في تحليل قوة الدولة أو وهنها وذلك أعتمادا على كتابات صموئيل هنتنغتون التي أكدت على قيم التوافق والشرعية والاستقرار التي عدت السمات المميزة للحداثة في المجتمعات المتطورة لذلك تحول التركيز من التقليد الفيبري نسبة الى ماكس فيبر

الذي يرى الدولة "كتلة مؤسسية صماء" الى التقليد الذي أرسى دعائمه (روبرت داهل) إذ تحدث عن الحكم بين أقليات متعددة وأكد على تعددية مصادر السلطة في المجتمعات الحديثة[٤٣].اذاً لم يعد مدخل النقاء القومي دالا على تماسك المجتمع ومن ثم قوة الدولة بقدر وجود تنوع مجتمعي يصب في مصلحة الدولة المنفتحة على المجتمع، تلك الدولة المتماسكة التي لا تحاول التغلغل في المجتمع بصورة مفرطة.

فمن دون فكرة ما عن "السيادة الاقليمية" و "الاستمرارية الزمانية" تفقد القومية والدولة القومية الحديثة تلاحمها كله[٤٤]. فالواقعية بشكليها التقليدي والجديد تنطلق من فرضية مركزية الدولة لأنها الفاعل الرئيس أن لم يكن الوحيد في السياسات الدولية وأن الواقعيون أنفسهم يعدون الشركات متعددة القومية هي أمتداد لقوة الدولة نفسها أو آليات اضافية للسيادة الخارجية وأن السياسات هي التي تحدد العولمة وذلك لتحقيق الامن الاقتصادي والاجتماعي والثقافي[٤٥]. ان الجدل بشأن القومية يظهر من خلال تجميع عدة عمليات من التغير التاريخي والحالات الطارئة التي يعذر التنبؤ بها ومن ثم يصعب أن نحدد بالضبط متى وأين وكيف ظهرت العناصر كلها المكونة للخطاب القومي كلها معاً ومعظم المفردات والمزاعم المرتبطة بالخطاب القومي كالدولة الحديثة وفكرة السيادة الشعبية وعالم الدولة القومية برزت في الحقبة الحديثة بدءاً من نهاية القرن الثامن عشر ، لذلك ينبغي ملاحظة أن وجود الخطاب القومي شرط ضروري فحسب وليس كافياً لظهور أمة معينة وأن هناك عوامل أخرى تؤدي لظهور أمة معينة وهذه العوامل اقتصادية واجتماعية وثقافية تندمج معاً لتشكيل الامم وتتغير وفقاً لتغير هذه العوامل[٤٦].

لم تعد القومية اليوم قادرة على انتاج ذاتها من خلال القدرة على اثارة الذكريات والمشاعر لتهيئة الاجواء التي تبين استعداد الناس للموت من أجل بلدانهم وأممهم، بل أن القومية اليوم تحاول جاهدة أن تكون جزءاً من الرابطة الوطنية إذ يستثمر الناس الثقة والموارد والتضامن والآمال بالمستقبل الى المدى الذي تتزامن معه فعلياً حالات التضامن وطنيا ومحليا، والقومية ليست مجرد رواية تروى أو خطاب يفسر ونص يفكك وأن كانت

القومية رواية أو خطاباً فهي رواية أو خطاب مؤسسي ومؤلفاً اجتماعيا في آن معا ويحظى بدعم من الاجهزة ايديولوجية للدولة والمجتمع المدني[٤٧].

الخاتمة:

ربما لم يحظ موضوع أكاديمي بهذا الاهتمام والتاثير مثلما حظي موضوع القومية ونظرياتها بهذا الجدل الاكاديمي الواسع لا بل حتى على المستوى الشعبي والدولي أي على صعيد النظام الدولي كونها أي القومية أسهمت في إثارة وحفز المشاعر الوطنية في كل مكان حول العالم ووضعت اللبنات الاساسية للنظام الدولي أي نظام الدولة القومية الذي شكلت القومية أحدى دعاماته الاساسية. ودراسات القومية كما هي القومية ذاتها تظهر ميلا نحو الانقسام والتشعب بشكلها التقليدي وحول الاسئلة التي تطرحها والمقاربات التي تسعى من خلالها الى تجاوز الاسئلة العلمية وطرح أسئلة آيديولوجية تكون على قدر من التنافر في محاولة منها لتمييز المجتمع القومي عن المجتمعات الاخرى. كما تطرح القومية موضوعات أخرى مرتبطة بها تكون محط جدل واسع واختلافات ومحل تنازع وصراع أثني من قبيل الحق الوطني في تقرير المصير وتاريخ الافكار الوطنية وصولا إلى أنتاج تواريخ مشوهة ومصطنعة حتى تتوافق مع الطرح الايديولوجي المهيمن على الخطاب القومي، ولا يشكل غياب الصراع الأثني أو تزايد وتيرته هنا وهناك في عالم اليوم دالة على وجود القومية من عدمها، فالناس أحيانا يسعون بدوافع عدة إلى الخروج على أرتباطات معينة لم يعودوا يؤمنون بها والميل باتجاه إنشاء إرتباطات جديدة ويضعون لها قدسية معينة. فالقومية هي سيرورة تاريخية يمر بها المجتمع والدولة في إطار أيجاد علاقات إرتباطية بينهما وتفسير خضوع المجتمع والافراد نحو سلطة معينة يرون أنها تلبي طموحاتهم وتحقق ذواتهم.

الهوامش

[١])إريك هوبسباوم، "الأمم والنزعة القومية–منذ عام ١٧٨٠"، ترجمة عدنان حسن، ط١، دار المدن، دمشق،١٩٩٩، ص٢١.

[٢]) المصدر نفسه، ص ٢٢.

[٣]) اريك هوبسباوم، مصدر سبق ذكره، ص ص ٢٣–٢٤.

[٤]) أحمد وهبان، "الصراعات العرقية واستقرار العالم المعاصر: دراسة في الأقليات والجماعات والحركات العرقية" ، دار الجامعة الجديدة، الإسكندرية، مصر، ١٩٩٧، ص١٠٥.

[٥]) اريك هوبسباوم،المصدر السابق، ص ٢٤.

[٦]) لمزيد من المعلومات ينظر، منى يوخنا ياقو، "حقوق الأقليات في القانون الدولي العام" ، دار الكتب القانونية، ٢٠١٠، ص ص٥٣-٥٤.

[٧]) إريك هوبسباوم، مصدر سبق ذكره ، ص ٣١.

[٨]) إداور.م. بيرنز، " النظريات السياسية في العالم المعاصر"، ترجمة عبد الكريم أحمد، دار الآداب، بيروت،ط٢، ١٩٨٨، ص ٢٤٨.

[٩]) جون أهرنبيرغ، " المجتمع المدني التاريخ النقدي للفكرة" ، ترجمة علي حاكم صالح، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط١، ٢٠٠٨، ص ١٥.

[١٠]) إريك هوبسباوم، مصدر سبق ذكره ،ص ٢٦.

[١١]) إدوار.م.بيرنز، مصدر سبق ذكره، ص ص ٢٤٨-٢٤٩.

[١٢])أوموت أوزكيريملي" نظريات القومية مقدمة نظرية"، ترجمة معين الغمام، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت،٢٠١٣،ص ص ٦٨-٦٩.

[١٣]) أوموت أوزكيريملي، ص٧١.

[١٤]) المصدر نفسه، ص ص ٧١-٧٥.

[١٥]) بويد شيفر" القومية عرض وتحليل"، ترجمة عدنان الحميري، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط١، ١٩٦٦، ص ٧٨.

[١٦]) المصدر نفسه، ص ٧٩.

[١٧]) إيرنست غيلز" الأمم والقومية"، ترجمة مجيد راضي، دار المدى، ط١، ١٩٩٩، ص ٤٨.

[١٨]) إيرنست غيلز، مصدر سبق ذكره، ص ٤٩.

[١٩]) إيرنست غيلز، مصدر سبق ذكره، ص ٥٠.

[٢٠]) بيتر. جي. كاتزنشتاين" الحضارات في السياسة العالمية وجهات نظر جمعية وتعددية"، ترجمة فاضل جتكر، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت،٢٠١٢، ص ١١٩.

[٢١]) إيرنست غيلز، مصدر سبق ذكره، ص ٥٤.

[٢٢]) بيتر. جي. كاتزنشتاين، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢.

[٢٣]) إيرنست غيلز، مصدر سبق ذكره، ص ٥٥.

[٢٤]) موريس كورنفورث" مدخل إلى المادية الجدلية"، ترجمة محمد مستجير، دار الفارابي، ط٣، ١٩٩٠، ٢٤١.

[٢٥]) ميريل وين ديفيز" مقدمات الأنثروبولوجيا"، ط١، ترجمة طارق الجبر، منشورات المتوسط، إيطاليا، ط١، ٢٠١٦، ص ص٧٥-٧٦.

[٢٦]) أدغار موران" النهج إنسانية البشرية الهوية البشرية"، ط١، ترجمة هناء صبحي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، الأمارات، ٢٠٠٩، ص ص ٢٠٧-٢١٤.

[٢٧]) ميريل وين ديفيز، المصدر السابق، ص ص٧٧-٧٨.

[٢٨]) سعيد الصديقي" الدولة في عالم متغير.. الدولة الوطنية والتحديات العالمية الجديدة"، ط١، مركز الأمارات للدراسات والبحوث الستراتيجية، أبو ظبي، ٢٠٠٨، ص ١٢.

[٢٩]) المصدر نفسه، ص ص١٣-١٤.

[٣٠]) خيري عبد الرزاق، "إدماج الأعراق وإدارة التنوع :المغرب والجزائر أنوذجاً"، ضمن كتاب المجتمعات التعددية إشكاليات الأندماج وسياسات الدولة، ط١،مركز المسبار للدراسات والبحوث، دبي، الأمارات، ٢٠١٥، ص ص٦١-٦٢.

[٣١]) المصدر نفسه، ذكره، ص٦٣.

[٣٢]) مصطفى المنشاوي، " تأثير فوز ترامب في الأحزاب القومية المتطرفة في أوربا"، مجلة السياسة الدولية، مركز الأهرام، القاهرة، عدد ٢٠٨، ٢٠١٧، ص ١٠٨.

[٣٣]) سعيد الصديقي، مصدر سبق ذكره، ص ١٥.

[٣٤]) سعيد الصديقي، مصدر سبق ذكره، ص١٨.

[٣٥]) الحبيب الجنحاني، " ظاهرة العولمة:الواقع والآفاق"، مجلة عالم الفكر،العدد الثاني، الكويت، ١٩٩٩، ص ١٩.

[٣٦]) أحمد ناجي قمحة، " في الأمن القومي:الهوية والفكر والثقافة في مواجهة تعقيدات العلاقات الدولية"،مجلة السياسة الدولية، مؤسسة الأهرام، القاهرة، عدد٢١٥، ٢٠١٩، ص٦.

[٣٧]) ثناء فؤاد عبد الله، " قضايا العولمة بين القبول والرفض" ، مجلة المستقبل العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدو العربية، عدد ٢٥٦، ٢٠٠٠، ص ص ٩١-٩٢.

[٣٨]) سعيد الصديقي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠.

[٣٩]) سعيد الصديقي، مصدر سبق ذكره، ص ص ٢٤-٢٥.

[٤٠]) خالد حنفي علي، " محفزات انتقال الدول من الهشاشة الى المناعة"، ملحق اتجاهات نظرية، مجلة السياسة الدولية، مؤسسة الاهرام، القاهرة، عدد،٢١١، ٢٠١٨، ص٣.

[٤١]) المصدر نفسه، ص ٣.

[٤٢]) خالد حنفي علي، مصدر سبق ذكره ، ص ٤.

[٤٣]) سمية متولي السيد، " مضادات الهشاشة ...أبعد المفهوم ومدخله التفسيري" ، ملحق اتجاهات نظرية، مجلة السياسة الدولية، مركز الاهرام، القاهرة، عدد٢١١، ٢٠١٨ ، ص ٧.

[٤٤]) أوموت أوزكريملي، مصدر سبق ذكره، ص ٣٦٨.

[٤٥]) سعيد الصديقي، مصدر سبق ذكره، ص ص ٢٧-٢٨.

[٤٦]) أوموت أوزكريملي، المصدر السابق ، ص ٣٧٥.

[٤٧]) المصدر نفسه، ص ص ٣٧٧-٣٧٨.